

الموقف التراثي من ظواهر الحداثة في اللغة

د. محمد عبدالمطلب (*)

يجاوز حدود الأبعاد المنطقية لهذه الأزمنة، ذلك أن اللغة كائن له وجوده المتعالي عليها، فإذا تم التفاعل بينها وبين الزمن، فإن ذلك يؤدي إلى حركة فاعلة، حيث يتم التغير داخل البناء اللغوي في شكل (ميكانيكلي) شبيه بتشكيل جملة الشروط التي تستهلك مقدماتها وصولاً إلى النتائج التطورية التي تأخذ طبيعة الثبات المتحفز لحركة ذاتية جديدة.

والواقع أن حركة الزمن إلى الأمام تنعكس على الإنسان لتتنظم حركته معه، وهو انتظام يمتد إلى مساحة واسعة من احتياجاته المادية والمعنوية، ومن وسائله المادية والمعنوية، وربما كانت الأخيرة أهمها وأشدّها ارتباطاً بهذه الحركة.

ومن أجل ذلك يبذل الإنسان جهداً ذكياً مدبراً في اجتراح مخزونه التجريبي مع من يحيط أو ما يحيط به، ثم يعود ليشكل ذلك وفقاً للحظة الحاضر أولاً، وترقباً للحظة الآتي ثانياً.

وطبيعة الإنسان عندما يفكر في التوائم مع حاضره

لا شك أن قضية (اللغة) ومشكلاتها كانت - وما زالت - لها أهميتها وخطورتها في تاريخنا الفكري، وربما لهذا تثار بين حين وآخر تساؤلات عن أبعادها وحدودها، لكي يوضع التناج اللغوي في مكانه الصحيح بالنسبة لعصره وملاءمته له.

ولكي نكون على بينة من أبعاد هذه القضية بالنسبة لواقعنا الأدبي واللغوي اليوم، علينا أن نمدّ البصر إلى الوراء لاستكشاف جوانب التفكير فيها من سبقونا زمنياً وفكراً، وربما كانت مواجهتهم لها ومعالجتهم لعناصرها وسيلة فعالة فيما نحن بصده، بل ربما كانت تجاربهم الفعلية في حدودها الزمانية والمكانية والفنية صالحة كأساس أولي لتناول القضية تناوياً محدثاً.

وطبيعة النظر العلمي تقتضي الالتفات - بصفة لازمة - إلى عنصر الزمن الذي يحتوي على وضعية (الماضي والحاضر والمستقبل)، وهذا يسمح لنا بأن نقول بأن طرح القضية على المستوى الحدائلي لا بد أن

(*) كاتب وباحث من جمهورية مصر العربية.

الاستشهاد بشعر القدماء، وليس مرجعها التقدم في الزمن، أو التأخر، وإنما مرجعها أن العرب الذين يتكلمون بالعربية ولا يخالطون العجم هم الحجة في مسائل اللغة، على عكس من خالطوا غيرهم ففسدت لغتهم بالمخالطة، ومن ثم لا يستدل بكلامهم، ولما كان العرب المتقدمون قبل الاسلام وفي الصدر الأول منه لم يخالطوا غيرهم - في الأكثر - كانت أقوالهم في اللغة حجة، ثم لما تغير الأمر وصاروا بالملك والدولة يخالطون غيرهم لم يستدل بلغتهم. ويستدل ابن سنان على صحة دعواه بما فعله أبو عمرو بن العلاء عندما كان يعيب جريراً والفرزدق بطول مقامهما في الحضر، كما أن الرواة أبطلوا الاحتجاج بشعر الكميت بن زيد، والطرماح، لأنها كانا حضريين.⁽¹⁾

فمسألة الزمن هنا لا تتدخل إلا بمقدار تلاؤمها مع الإطار الاجتماعي والثقافي لهذه البيئة حتى إنه لو فرضنا اليوم أن في بعض القفار النائية عن العمارة قوماً من العرب لا يخالطون غيرهم وكانوا قد أخذوا اللغة عن مثلهم، وكذلك إلى حين ابتداء الوضع، لوجب أن يكون قولهم حجة كأقوال المتقدمين وإن كانوا محدثين.⁽²⁾

ويستمر ابن سنان في محاوره ممتعة مع من يتصور أن مجرد الإطار الزمني وحده كاف في الحكم بالحدثة أو القدم، ومن ثم بتفضيل جانب على آخر، ذلك أن الزعم بأفضلية المتقدم زمنياً دون تعليل مناسب، قد يرد عليه بادعاء مائل، وهو أن شعر المحدثين أفضل لتأخر زمانهم، إذ لا فرق بين الادعاءين.

ويدهشنا أن يدق ابن سنان في طبيعة الإطار الزمني وصلته بمفهوم الحدثة، حيث إن هذا الإطار ليس مقيد الحدود، ومن هنا لا يصلح ضابطاً لمعايير الحدثة أو القدم، وعلى هذا النحو كلما تحركنا بعيداً عن بيئة اللغويين والنحاة، واقترنا من بيئة النقاد والأدباء، ظهرت نسبية الحدثة والقدم، فكل قديم

يحاول إيجاد أشياء ربما لم تكن موجودة سلفاً، أو يكشف عن أشياء ربما لم يرها من قبل، وهنا قد يعمد إلى استخراج كثير من مخزونه اللغوي ويلبسه ملابس جديدة، استجابة لتساؤل ملح: ماذا هو فاعل أمام متغيرات عصره، وكيف يتوازن مع أبعاد الزمان والمكان التي تتحكم في شروط الممكن وتربط الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها.

ومنتقلات البعد الزمني في ارتباطه باللغة، لا تعني فقط الزمن بمعنى التاريخ الذي نسجله، ونرتب به أحداث الحياة، فإن هذه نظرة محدودة، لأن مفهوم الزمن - عندنا - ينسحب على عملية التتابع والإلاحاح على ظواهر معينة، أو بمعنى آخر: التراكم الكمي لفترة معينة في الظواهر الفكرية أو الثقافية، أو الاجتماعية، أو الفنية، أو الدينية، وكلها أمور لم تتوقف حركتها في لحظة من اللحظات، وإنما الذي يحدث نوع من التراكم في فترة بعينها، قد يتوقف عندها، وقد يستمر إلى الأتي بعدها.

وهنا يرد علينا موقف القدماء من اللغة بين (القدم والحدثة) وكيفية طرحهم لها من منظور عصرهم كنوع من التنوير للمعالجة العصرية، حيث نلاحظ أنهم ربطوا (القديم) بالبعد الزمني والتراكم الفني معاً، فليس القدم مجرد امتداد زمني، وإنما لا بد من تلازم هذا الامتداد مع ظواهر لها طبيعة التسلسل والترابط، إذ إنها تحتوي في أعماقها على علاقات شرطية تتيح (للرواة) أن يخرجوا منها بنتائج محددة فيما يتصل باللغة والأدب على العموم، ويلحظ هنا أن المسألة لم تكن تعصباً أعمى لهذا أولذاك، بقدر ما كانت عملية تفاعل وتقبل لطبيعة التطور وشروطه التي تحققت.

وكل ما تردد من تعصب ضدّ النتاج الأدبي في مرحلة معينة إنما مصدره قضية أخرى - بعيدة عن الأدبية - أثارها ابن سنان الخفاجي، وهي قضية

يقول عن الكمية إنه «جرماني من جرماني الشام لا يحتاج بشعره».⁽⁷⁾

وعندما ينشده إسحق الموصلي:

هل إلى نظرة إليك سبيل
فيروي الصدى ويشفي الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي
وكثير ممن يُحب القليل

يقول له: لمن تنشدي؟ فيقول: لبعض
(الأعراب)، فقال: هذا - والله - هو الديداج
الخسرواني، قال: فإنها ليلتها، قال: لا جرم والله
إن آثار الصنعة والتكلف بين عليهما.⁽⁸⁾

ومثله في ذلك ابن الأعرابي عندما أنشد أرجوزة
أبي تمام التي أولها:

وعاذل عدلته في عدله

فظن أي جاهل من جهله
على أنها لبعض (الأعراب) فاستحسنها، وأمر
بعض أصحابه أن يكتبها له، فلما فعل، قال: إنها
لأبي تمام، فقال: خرق خرق.⁽⁹⁾

أي أن إعجاب الأصمعي وابن الأعرابي كان
لحاجة كل منهما إلى شعر (الأعراب) فلما تبين لهما غير
ذلك، كان الرفض وعدم القبول.

وهذا كله يؤكد أمراً له خطورته، وهو الحرص على
تثبيت الظاهرة اللغوية على النحو الذي نزل عليه
القرآن، ومن ثم كان لا بد من الوقوف بحزم أمام
أي تطور يسمح بوجود نموذج داخلي أو خارجي في اللغة
يبعدها عن اللغة القرآنية، وهو خطر أحس به
الرواة، ومنهم أبو عمرو بن العلاء، فكان يقول:
«اللسان الذي نزل به القرآن وتكلمت به العرب على
عهد النبي صلى الله عليه وسلم، عربية أخرى غير
كلامنا هذا»⁽¹⁰⁾ وهذه المقولة لأبي عمرو إن دلت على
حرص اللغويين على مواجهة التطور اللغوي من

هو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله.⁽³⁾
ومن هنا كان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد أحسن
هذا المولد حتى هممت أن أمر صبيانا بروايته. يعني
بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولداً بالإضافة
إلى شعر الجاهلية والمخضرمين.

وبمقارنة ما رده ابن رشيق بما قاله أبو عمرو بن
العلاء يتبين الفارق بين موقفين:

الأول: نظرة النقاد الأدباء إلى مسألة الزمن وأنها
نسبية لا تكفي في تحديد ملامح الحدثة اللغوية، حتى
إن ابن رشيق اعتبر عنتره شاعراً محدثاً في قوله:

(هل غادر الشعراء من متردّم)

فما قاله الشاعر يدل على أنه كان «يعد نفساً محدثاً»
قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه، ولم يغادروا
له شيئاً.⁽⁴⁾

الثاني: موقف اللغويين والنحاة في اعتبار الزمن
حداً فاصلاً بين المحدث والقديم، مع ربطه بالظروف
الحضارية التي صاحبت حركة الزمن، وليس ذلك إلا
حرصاً منهم على الحدود المقدسة التي أحاطوا بها (لغة
الاحتجاج)، حتى قال الأصمعي إنه جلس إلى
أبي عمرو عشر حجج فلم يسمعه يحتاج بيت
إسلامي.⁽⁵⁾

فإعجاب أبي عمرو بشعر المحدثين فنياً لم يكن
كافياً لاتخاذ هذا الشعر حجة في مسائل اللغة، ويبدو
أن معظم الرواة كانوا على «مذهب أبي عمرو
وأصحابه كالأصمعي وابن الأعرابي، أعني أن كل
واحد منهم يذهب في أهل عصره هذا المذهب، ويقدم
من قبلهم، وليس ذلك لشيء إلا لحاجتهم - في الشعر
- إلى الشاهد، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون»⁽⁶⁾.

وأهمية الحاجة إلى الشاهد اللغوي جعلت الرواة
يقفون من بعض الشعراء الإسلاميين موقفاً متشدداً،
وذلك برغم تأخرهم النسبي في الزمن، فالأصمعي

بالشدوذ، وقاد سيبويه هذه الحركة العقلية في قدرة مذهلة يمكن رصدها في (الكتاب) بتعليلاته واستدلالاته المنطقية.

وفي مقابل هذه الحركة العقلية البصرية ظهرت حركة أخرى كرد فعل لها في (الكوفة) بزعامة الكسائي، فبينما كان البصريون يدعون إلى العقل، وما يصوغه من قواعد تنظم لهم منهجية صارمة، جاء الكوفيون بدعوة مضادة، وهي أن يكون الحكم للسابقة، لا للقاعدة العقلية، فإذا وجدنا العرب الأقدمين يستخدمون لفظة أو عبارة بطريقة معينة، كانت هي النموذج الذي نحتذيه، ولا معنى لأن يقال لأصحاب الافة وخالفوها: لقد أخطأتم هنا، وأصبتم هناك، بل إن ما قالوه، بالصورة التي قالوه بها - أيا كانت هذه الصورة - هو معيار الصواب الذي يقاس إليه كلام اللاحقين.⁽¹³⁾

وهذا التعارض الشديد بين المدينتين جعل للغة القدماء أهمية خاصة، سواء جاءت هذه اللغة من خلال النماذج الأدبية الراقية، أو من خلال التعامل اليومي المألوف، وفي ذلك يروي عبدالله بن أسباط عن شيوخه أن هارون الرشيد «جمع سيبويه والكسائي، فألقى سيبويه على الكسائي مسألة فقال: هل يجوز قول القائل: كاد الزنبور يكون العقرب فكأنه إياها، أو كأنها إياه؟ فجوزه الكسائي على معنى: كأنه هي، أو كأنها هو. وأباه سيبويه، فأحضر الرشيد جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالبواب، وسألهم عنها بحضرتها، فصوبوا قول سيبويه، ولم يجوزوا ما قاله الكسائي».⁽¹⁴⁾

وطبيعة هذا الموقف من النماذج اللغوية القديمة جعلت هناك نوعاً من الحرج عند تناول شعر من أسموهم بالمحدثين، فإذا تعرض رجل كالمربد للحديث عنهم يحرز بقوله: «وإن لم يكن بحجة،

جهة، فإنها من جهة أخرى تدل على فشل محاولاتهم، إذ إن التطور والتغير قد أصاب اللغة برغم قرب المسافة الزمنية بين نزول القرآن وقول أبي عمرو السابق.

وربما كان الاحساس بكل ذلك وراء ازدياد الحاجة إلى اجترار النماذج الشعرية القديمة عند تفسير شيء من القرآن، أو الاستشهاد على غط نحوي ورد فيه، ف«الشعر ديوان العرب، وبه حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تعلمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله جل ثناؤه، وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحديث صحابته والتابعين رحمهم الله تعالى»⁽¹¹⁾ فلهذا اكتسب هذا الشعر نوعاً من القداسة، لا باعتبار ذاته، وإنما باعتباره مثلاً للأداء اللغوي الصحيح، فقد أنشد أبو عمرو هذا قول امرئ القيس:

نطعنهم سلكى ومخلوجة
كرك لأمين على نابل
وقول الحارث بن حلزة:

زعموا أن كل من ضرب العير قوال لنا وأنا الولاء
«فقال: ذهب من يحسن هذا الكلام، ولهذا صار العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين، ولا يستشهدون به، كبشار بن برد، والحسن بن هانئ، ودعبل العتابي، وأحزابهم من فصحاء الشعراء، والمتقدمين في صنعة الشعر ونجره، وإنما يرجعون في الاستشهاد إلى شعر الجاهلية وإلى المخضرمين منهم، وإلى الطبقة الثالثة التي أدركت المخضرمين، وذلك لعلمهم بما دخل الكلام - في الزمن المتأخر - من الخلل والاستحالة عن رسمه الأول»⁽¹²⁾ ويبدو أن الإلحاح على تثبيت الظاهرة اللغوية كان وراء عقلانية (البصرة) في درسها النحوي ومحاولة صبه في قوالب منطقة بحيث يخضع لها الكلام العربي في استعمالاته الغالبة، وما خرج عن هذه المنطقية حكم عليه

ولكنه أجاد فذكرنا شعره هنا لجودته لا للاحتجاج به». (15)

وهذه النسبية الزمانية تمتد لتصل بالبعد المكاني لتجعل من مفهوم الحداثة نوعاً من التراكبات الفنية التي تتلازم مع الخواص اللغوية، فتأخذ من حركة الزمن استمرارية واتصال، وتأخذ من ثبات المكان عمقاً قد يصل إلى حد الجمود، وإن كان هذا وذاك يرتبط بما جد على هذه البيئة من ذوق خاص يختلف تبعاً لاختلاف الزمان والمكان، لأن المؤلف أن «تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه، وكثر استعماله عند أهله، بعد ألا يخرج عن حسن الاستواء، وحد الاعتدال، وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونواذرهم وحكاياتهم». (16)

والبعد المكاني يتصل أصلاً بالظروف العامة التي حكمت المجتمع العربي بعد مجيء الاسلام، حيث اتسعت الممالك، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف، واختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وأحسنه سمعاً، وألطفه من القلب موقعاً، وأسلسة وأشرفه.

وكان التجوز في طلب التسهيل مدعاة إلى التسميح ببعض اللحن، ومخالطة الركافة والعجمة وأعان على كل ذلك لين الحضارة، وسهولة الطباع والأخلاق.

وتأثر الشعر بكل ذلك، فترقق الشعراء ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف الألفاظ، فصارت إذا قيست بالقديم تبين فيها اللين، فيظن بها الضعف، لكن معاودة النظر من خلال الظروف المتغيرة يتبين معها أن هذا اللين صفاء ورونق، وما كان معدوداً من

الضعف رشاقة ولطفاً، بل إن محاولة الارتداد للقديم تقتضي تكلفاً شديداً ممقوتاً، وتصنعاً منفراً. (17)

وبرغم كل ذلك يبدو أن القاضي الجرجاني لم يستوعب تماماً ما يرتبط بالحداثة من تغيرات على مستويات مختلفة في الزمان والمكان والإنسان، وأنها تفرز ألواناً من الصراع فوق سطح الأحداث أو تحته، بعضها يمثل عناصر ثبات وجود، وبعضها يمثل عناصر حركة وتطور، أي أن الحداثة استمرارية متجددة، وقد يكون اجتراح بعض عناصر الماضي نوعاً من الحداثة ذاتها.

ولهذا التصور عاب الجرجاني أبا تمام عندما ظن به محاولة الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه، فحصل على توعر قبيح، وتعسف ما أمكن، وتغلغل في التعصب، ومن ثم اعتبر الجرجاني بديع أبي تمام - برغم حدائثه - لوناً من الأداء اللغوي المعقد، حيث قاده ذلك إلى المعاني الغامضة، والأغراض الخفية، وصار هذا الشعر لا يصل إلى القلب إلا بعد إعتاب الفكر، وكد الخاطر، والحمل على القرينة. (18)

ومن هنا لم يستطع استيعاب إسقاطات أبي تمام في مثل قوله:

جهمية الأوصاف إلا أنهم
قد لقبوها جوهر الأشياء

واعتبر ذلك من جنابات الحداثة عليه حتى يحوج فهمه «إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس». (19)

وذلك على الرغم من أن ملامح الحداثة - عنده - تمثلت في قرب العهد وشدة الأنس، ومناسبة الكلام للطباع والعادات، لأن النفس يطبعها ألوفه للأقرب فالأقرب إليها. (20) كما تمثلت في المشاركة المكانية والزمانية، ف«المحدثون الذين شاركونا في الدار والبلد، وجاورونا في العصر والمولد». (21)

وهو يعترف بأن الواقع الحضاري قد هباً لمتغيرات

لغوية وفنية يعتبر الارتداد عنها نوعاً من التكلف الممقوت، والتصنع المنفر.

فالمعجم اللغوي يقدم للمتكلم مادة وفيرة يأخذ منها ويختار، وطبيعة الحدائث جعلت الناس يختارون «من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذى أساء كثيرة فاخترتوا أحسنها سمعاً، وألطفها من القلب موقعاً، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها وأشرفها، كما رأيتم يختصرون ألفاظ الطويل، فإنهم وجدوا للعرب فيه نحواً من ستين لفظة أكثرها بشع شنع، كالعَشْطُ والعَنْطُطُ والعَشْشَقُ، والجرب والشوقب والسهاب والشوذب، والطاط والوطوط، والقاق والفوق، فنبذوا جميع ذلك وتركوه»⁽²²⁾.

ولأهمية البعد المكاني في رسم حدود الحدائث والقدم وجدنا ابن سلام يميز (شعراء القرى العربية) بحديث خاص «وهن خمس: المدينة ومكة والطائف والبيامة والبحرين»⁽²³⁾.

وتبعاً لاختلاف البيئة المكانية يحدث التمايز في النتاج الفني من ناحية، والخواص التعبيرية من ناحية أخرى، فـ «أشعار قريش فيها لين يشكل بعض الإشكال»⁽²⁴⁾ وكثير شاعر الحجاز ومكانته غير منكورة عند أهلها، لكنه كان منقوص عند غيرهم، فقد قدم على عبد الملك «فأنشده والأخطل عنده، فقال له عبد الملك: كيف ترى يا أبا مالك؟ قال: أرى شعراً حجازياً مقررراً، لو ضغطه برد الشام لاصمحل»⁽²⁵⁾.

ومن هذا المنطلق كان أبو عمرو بن العلاء يعيب جريراً والفرزدق بطول مقامهما في الحضرة، كما أبطل الرواة الاحتجاج بشعر الكميت بن زيد والطرماح لأنهما كانا حضريين.⁽²⁶⁾ وكان الأصمعي يقول: إن العرب لا تروي شعر عدي بن زيد وأبي دؤاد لأن ألفاظهما ليست بنجدية.⁽²⁷⁾ فـ «عدي بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف، فلأن لسانه وسهل

منطقه، فحمل عليه شيء كثير، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف، وخلط فيه المفضل فأكثر»⁽²⁸⁾.

فالطبيعة المكانية لها دورها الأساسي، وتمثل ذلك في كثير من المحاورات اللغوية التي في ضوءها كان يقبل الأداء الشعري أو يرفض، فقد قال أبو حاتم للأصمعي: «أقول في التهديد: أبرق وأرعد؟ فقال: لا لست أقول ذلك إلا أن أرى البرق أو أسمع الرعد، فقلت: فقد قال الكميت:

أبرق وأرعد يا زيد
فما وعيدك لي بضائر
فقال: الكميت جرمقاني من أهل الموصل ليس بحجة»⁽²⁹⁾.

ولا شك أن الشعراء كانوا على وعي بذلك مما جعلهم يحاولون الملاءمة بين نتاجهم الفني والظروف المكانية التي يتصلون بها، فقد كان يصنع ذلك أبو تمام إدلالاً منه على علمه باللغة وبكلام العرب، فيعمد إلى إدخال ألفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره، وذلك نحو قوله:

هن البجاري يا بجير
أهدى لها الأبؤس والغوير
وقوله:

قدك اتب أربيت في الغلواء

«وهذا في شعره كثير موجود، والبحري لم يقصد هذا ولا اعتمده، ولا كان له عنده فضيلة، ولا رأى أنه علم لأنه ببادية منبج، وكان يتعمد حذف الغريب والوحشي من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه، إلا أن يأتيه طبعه باللفظة في موضعها من غير طلب لها، ويرى أن ذلك أنفق وأبلغ للمراد والغرض، ويدلك على ذلك أنه كان يكنى أبا عبادة، ولما دخل العراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية، ويساوى

في مذاهبه أهل الحاضرة، ويقرب بهذه الكنية إلى أهل النباهة⁽³⁰⁾.

وعلى هذا يرتد المعجم اللغوي عند الشاعر إلى البيئة المكانية، فليس للمحدث حاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها، والفقار ومياهاها، وحر الوحش والبقر، والظلمات والوعول كما بالأعراب وأهل البادية، لرغبة الناس في الوقت عن تلك الصفات، وعلمهم أن الشاعر إنما يتكلفها تكلفاً ليجري على سنن الشعراء قديماً «والأولى في هذا الوقت - أي وقت ابن رشيقي - أن يتناول الشعراء صفات الخمر والقيان وما شاكلهما، وما كان مناسباً لهما. كالكوؤوس والقناني والأباريق وتفايح التحيات، وباقات الزهر، إلى ما لا بد منه من صفات الحدود والقُدود والنهود، والوجود والشعور، والريق والثغور، والأرداف والخصور، ثم صفات الرياض والبرك والقصور، وما شاكل المولدين، فإن ارتفعت البضاعة فصفات الجيوش وما يتصل بها من ذكر الخيول والسيوف، والرماح والدروع، والقسي والنبل، إلى نحو ذلك من ذكر الطبول والبندوب والمنحرفات والمنجنيقات»⁽³¹⁾ ولا شك أن الظواهر الإنسانية في المجالات المختلفة لا بد أن تكون نتاج مناخ معين له طبيعة النظام والانتظام، وفي مجال اللغة والأدب يكون هذا المناخ أكثر ظهوراً وأشد تأثيراً، وبما أن اللغة هي المادة الأولية للأدب، فإن العلاقة بينهما تصبح علاقة شرطية ترتب أحدهما على الآخر، وتجعل انتقال الخواص بينهما ذا علاقة جدلية، فيها الأخذ والعطاء، ومن هنا كانت نظرة القدماء اليهما لا تكاد تفصل بين ما هو من طبيعة اللغة، وبين ما هو من طبيعة الأدب، وأصبحت الظواهر الفنية لكليهما بمثابة مؤشرات تحدد شروط الحدائث، مثلها - في ذلك - مثل الزمان والمكان إن لم ترد عليهما.

وإذا كان بعض القوم - من أهل اللغة - يميلون إلى خواص معينة في الأداء الفني أو الأداء اليومي

المألوف، فإن هذا الميل كان يتحكم في تقييم النماذج الأدبية باعتبار قدمها أو حداثتها، فمنهم من يميلون إلى الرصين من الكلام الذي يجمع القريب، مثل أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر والأصمعي، ومنهم من يختار الوحشي من الشعر كما اختار المفضل للمنصور من المفضليات⁽³²⁾.

معنى هذا أن طابع العصر، أو ملامح الحدائث يمكن متابعتها من خلال استعمال اللغة - اختياراً وتوزيعاً - في العمل الأدبي ذاته لا في المبدع، فتطور التعبيرات اللغوية في استمرارية يسمح بتحديد كثير من ملامح الحدائث في اللغة والأدب على سواء.

وهذا الإدراك المزدوج قد تنبه إليه ابن سنان الخفاجي عندما ربط الحدائث بالذات مرة، وبالنسبة الشعري مرة أخرى، ففي محاورته مع من ينتصر للقدماء على المحدثين يطرح عليه تساؤلاً حول رأيه من شعر امرئ القيس لو كان معاصراً له، أكان رأيه فيه هو رأيه اليوم؟ فإن أجاب بنعم. قيل له: وكيف ذلك وأنت تختاره اليوم وتفضله بقدمه؟ فإن كان في ذلك الوقت محدثاً عندك، فحكمه حكم المحدث اليوم.

وإن قال كنت أذهب فيه غير ما أذهب اليوم، قيل له: فهل تأليفه على ما هو عليه أم تغير ما كان عليه؟ فإن قال تغير، قيل: إذن هو غير ما ألفه امرؤ القيس، وهذا ما لا يقوله أحد، وإن قال هو بحاله في الأكثر، قيل له فيجب أن يكون بحاله على صفة، ثم يصير بحاله على صفة أخرى من غير أن يزيد شيئاً، وهذا خارج عن المعقول⁽³³⁾.

ومن يذهب إلى تفضيل أشعار المتقدمين من حيث سبقهم إلى المعاني والألفاظ، فإن هذا يقال له: إن التقديم والتفضيل هنا إنما يكون لذوات الشعراء وليس لشعرهم، لأن أفضلية الشاعر بالزمن لا تقتضي أن يكون شعره أحسن⁽³⁴⁾.

فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري، فيعدل إلى الطعن عليه.⁽³⁹⁾

وأبو تمام - في مذهبه - كان واضحاً غاية الوضوح، ويلتزمه عن وعي وقصد، وذلك برغم إدراكه أن الذوق لم يكن قد تمياً تماماً لاستيعاب هذه الصياغة الشعرية التي تعتمد المفارقة التعبيرية أساساً لها، فنسبت إليه كثير من الإحالات جعلت بعض المهتمين بالدرس اللغوي يحثونه على أن يقول ما يفهم، فكان يطالبهم بمحاولة فهم ما يقال.⁽⁴⁰⁾ أي تقبل هذا الإطار الفني الجديد الذي يتفق أو يختلف عما ألفه العرب، «والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تحبس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظ، أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالاته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض».⁽⁴¹⁾

فإذا جاء شيء من الصنعة استطرفوا ذلك في البيت أو البيتين، أما إذا كثر فهو عيب يشهد بخلاف الطبع «كالذي يأتي من أشعار حبيب والبحري وغيرهما، وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها».⁽²⁴⁾

وليس معنى هذا إلا أن الصنعة نوع من الأداء اللغوي غير المؤلف، لكن أفاد منها بعض الشعراء من الملاءمة بين ذواتهم وبين ما يقولون من شعر، ثم الملاءمة بين هذا الشعر وبين طبيعة الحياة الجديدة التي كانت المفارقة الاجتماعية والفكرية والدينية أهم سماتها. ومن هنا كان هذا الأداء اللغوي سمة على زمانه، وإن كان له وجوده الواضح في بعض ألوان الأداء القرآني وأحاديث الرسول (ص) واللغة على وجه العموم، أي «أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس، ومن تقلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الأداء، ولكن كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودل عليه».⁽⁴³⁾

والذي لا شك فيه أن الشعر القديم يحتوي مادة وفيرة من الألفاظ، يمكن أن ننظر إليها من زاوية الأفراد أو من زاوية التركيب، وبالنسبة للنظر الأول فلا مزية لشاعر على آخر، تقدم أو تأخر عنه، أما النظر الثاني فإنه لا يقتضي مزية أو فضيلة، لأن لكل شاعر طريقة في التأليف، فلوفرضنا أنه أخذ ما سبق تأليفه لشاعر آخر، فإن هذا الأخذ لم يؤثر فيه، بل يكون الأمر بمنزلة قصيدة شاعر ينتحلها آخر، فلا يقال إن الانتقال أثر فيها.⁽³⁵⁾

ولكن يبدو أن الأمدي قد حاول أن يعطي للحدائث تحديداً من خلال الخواص التي تتوفر في الصياغة، وخاصة الصياغة الشعرية، وذلك باعتبار الأعمال الشعرية وثائق لأغراض فنية تسمح بعقد المقارنات، أو الموازنات بين الشعراء، فعندما يعرض لأبي تمام والبحري يرى أن الثاني منهما وإن عُدَّ من المحدثين زماناً، فإنه على نهج الأوائل في شعره ونسق كلامه، ولذا كان أشبه بأشجع السلمي وأمثاله من المطبوعين، فهو يميل «إلى حلاوة النفس، وحسن التخلص، ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وانكشاف المعاني».⁽³⁶⁾

أما الأول «فهو شديد التكلف صاحب صنعة، ومستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم، لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة، فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه».⁽³⁷⁾

ولأن أبا تمام خالف القدماء وخرج على نمطهم في الصياغة، لم يجد قبولاً، أو لنقل أن البعض لم يستطع تقبل هذا النمط الجديد، فكان يتهم الشاعر بالنثرية، ومشابهة شعره للخطب حتى قال ابن الأعرابي: «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل»⁽³⁸⁾ فابن الأعرابي كانت له دوافعه الخاصة التي حالت بينه وبين هذا المذهب (المحدث) في الشعر فلم يقبله لغرابته مذهبه، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه،

فقد اتصل استعمالها بمفهوم الحداثة على نحو من الأنحاء، وذلك أن المبدع عندما يوقع اختياره على مفردات بعينها من مخزونه المعجمي لا يصنع ذلك عفواً، وإنما تكون له دوافعه الجمالية التي تغلف هذا الاختيار بالوعي والقصد، ومراعاة الاعتبارات التي تتصل ببنية الفنية، ومراعاة الاعتبارات التي ترتبط بعملية التوصيل، ومن هنا قد تدعو الحاجة الإيصالية إلى إيقاع الاختيار أحياناً على معجم غير عربي، فقد لا تكون الكلمة محكية عن العرب، ولكن لا مانع من استعمالها «لأن العرب تستعمل كثيراً من ألفاظ العجم إذا احتاجت إليه لإقامة الوزن، وإتمام القافية، وقد تتجاوز ذلك إلى استعماله مع الاستغناء عنه، كما سموا (الحمل) (برقا) مع كثرة أساء الغنم عندهم. . . . فليس بمحظور على الشاعر الاقتداء بهم في أمثال ذلك إذا احتاج إليه، فأما المحدثون فقد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد لما احتاجوا إلى الإفهام، وكانت تلك الألفاظ أغلب على أهل زمانهم وأقرب إلى أفهام من يقصدون إفهامه.

وقد أفرط أبونواس حتى استعمل (زغردة)، و(بازبندة) و(باريكندة)، وغير ذلك، فإن كانت اللفظة مسموعة عن العرب على ما حكاه أبو الطيب، فقد زالت الكلفة، وإن لم تكن محفوظة فيما رويناه من أمثالها عن العرب والمحدثين يعتذر عنه، ويقوم بحجته».⁽⁴⁵⁾

وقد لاحظ ابن الرومي في بعض تسطيراته أن أبا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأقْبى بها.⁽⁴⁶⁾

أي أن الظروف الخاصة، أو الحاجة التعبيرية قد تتصل بالحداثة في اختيار اللفظة، مثلها في ذلك مثل الحاجة إلى توصيل المعنى إلى القارئ لإقناعه والتأثير فيه.

فكان البديع أصبح غمطاً تعبيرياً يجعل من المفارقة الحسية أو المعنوية لغة أصلية، كما يجعل من الإيقاع والتكرار طرازاً فنياً لا يميلنا إلى شيء غير ذاته باعتباره هو الواقع مصدراً ومرجعاً، فهو يمثل عملية تنظيم للعناصر التعبيرية يخلع عليها طابعاً زمنياً ومكانياً في آن واحد، وذلك يحتاج - بالطبع - إلى مهارة جرفية وخبرة بإمكانات اللغة إيقاعياً، وإمكاناتها في التنظيم والتناسب.

وهذه الظواهر التعبيرية أصبحت - بالإلحاح عليها - تجد نوعاً من القبول والإعجاب ثم الاستحسان، حتى استقرت علامة مميزة لحداثة فنية تشكل من كل عصر بما يوائمه حتى يومنا هذا.

وقد حاول ابن رشيق أن يدقق في طبيعة ظهور هذا المذهب التعبيري، كما حاول ربطه بما سبقه من مذاهب المتقدمين في الأداء، فلاحظ أنه لم يكن في الأشعار المحدثه قبل مسلم إلا النبذ اليسير، فجعله في منزلة زهير بالنسبة للمولدين، من حيث إبطائه في الصنعة وإجادتها، أما تفتيق البديع والتفنن فيه فأوليته كانت عند بشار وابن هرمة، ثم تبعهما كلثوم بن عمرو والعتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأبونواس، وتبع هؤلاء حبيب الطائي والوليد والبحري وعبدالله بن المعتز، فانهى علم البديع والصنعة إليه وختم به.

وطبيعة التواصل بين القديم والجديد جعلت هناك مشابهة بين أبي نواس والناطقة في الجزالة والرشاقة وحسن الديباجة والمعرفة بمدح الملوك، وبين بشار وامرئ القيس في تقدمه على المولدين وأخذهم عنه، حتى قالوا: إن بشاراً أبو المحدثين، ومن ناحية أخرى تعقد المشابهة بين بشار والأعشى لما بين شعريهما من كثافة الإيقاع، حتى يخيل لمن يسمع هذا الشعر أن آخر ينشده في نفس الوقت.⁽⁴⁴⁾

وبرغم أن الألفاظ المفردة لها إطارها (الوضعي)

رؤيتها اللاحقة، ومن هنا تكون وقفنا مع هذه الرؤية التراثية وسيلة للإفادة بشروطها فيما نحاول أن نعرض له اليوم من صور الحداثة وتحليلاتها، وبمعنى آخر نقول: إن في تراثنا الفكري عناصر تجديد يمكن أن نفيد منها اليوم، ونعيدها إلى الحياة لتكون من مكونات نسيج عصرنا دون أن ننغلق عليها ونجتريها بلا هدف، بل نحاول من خلالها تعقب الظواهر، ورد مدركاتها إلى الشعور الواعي بأسبابها، وإلى عواملها التي أفرزتها.

إن الذي لا شك فيه أن تحليلات الحداثة كان لها امتدادها النامي داخل الحياة اللغوية، ومن هنا ظلت محتفظة بوجودها الدائم، ففرضت على الدارسين أن يعرضوا لها مرة بعد أخرى، وهم في ذلك كانوا يتوقفون آنأ بعد آن لتحليل عناصرها تارة، ولربطها بملاساتها تارة أخرى، مع الأخذ في الاعتبار أن يكون هناك نوع من الترابط بين مراحل التحديث المختلفة، على معنى أن رؤية التحليلات في مرحلة سابقة، وتحديد شروطها، يكون - بلا شك - عوناً في

الحواشي

- (1) سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي - مكتبة صبيح بمصر 1969: 275، 276
- (2) السابق: 276
- (3) العمدة - ابن رشيقي - مكتبة أمين هندية بمصر سنة 1925: 56/1
- (4) السابق: 57/1
- (5) البيان والتبيين - الجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون - لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1948: 321/1
- (6) العمدة: 57/1
- (7) الوساطة - القاضي الجرجاني - تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي - عيسى الحلبي بمصر: 10
- (8) سر الفصاحة: 271
- (9) السابق: 721
- (10) بيان إعجاز القرآن - الخطابي تحقيق محمد خلف الله ود. زغلول سلام - المعارف بمصر سنة 1968: 45، 46
- (11) الصاحبي - ابن فارس - تحقيق السيد أحمد صقر - عيسى الحلبي بالقاهرة سنة 1977: 467
- (12) بيان إعجاز القرآن: 46
- (13) أنظر: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري - د. زكي نجيب محمود - دار الشروق سنة 1981: 94
- (14) بيان إعجاز القرآن: 34
- (15) الكامل - المبرد - مكتبة المعارف ببيروت: 6/1
- (16) العمدة: 58/1
- (17) أنظر: الوساطة: 18، 19
- (18) السابق: 19
- (19) السابق: 20
- (20) السابق: 29
- (21) السابق: 160

-
- (22) السابق : 18
- (23) طبقات الشعراء - ابن سلام - دار الكتب العلمية ببيروت - الطبعة الأولى سنة 1982 : 87
- (24) السابق : 96
- (25) السابق : 167
- (26) سر الفصاحة : 276
- (27) الوساطة : 51
- (28) طبقات ابن سلام : 59
- (29) الأمالى - القالى - الأميرية ببولاق سنة 1324 هـ : 97/1
- (30) الموازنة بين أبي تمام والبحري - الأمدي - صبيح بمصر : 11
- (31) العمدة : 227/2
- (32) اعجاز القرآن - الباقلاني - تحقيق السيد أحمد صقر - المعارف بمصر سنة 1962 : 116
- (33) سر الفصاحة : 273
- (34) السابق : 273
- (35) السابق : 274
- (36) الموازنة : 2
- (37) السابق : 3
- (38) السابق : 8
- (39) السابق : 9
- (40) السابق : 9
- (41) العمدة : 83/1 ، 84
- (42) السابق : 84/1
- (43) البديع - ابن المعتز - ضمن كتاب (ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان) محمد عبد المنعم خفاجي - العهد الجديد للطباعة - الطبعة الثانية سنة 1958 : 610 ، 611
- (44) أنظر : العمدة : 85/1
- (45) الوساطة : 461 ، 462
- (46) السابق : 86